

الانحراف في التفسير - التكفير أنموذجاً - دراسة تفسيرية موضوعية في آية (الزمر)

د. سالم أبويكر سالم الهدار

أستاذ مساعد قسم القرآن وعلومه - كلية أصول الدين - جامعة الإمام الشافعي - المكلا - حضرموت

sa_haddar@hotmail.com

الملخص

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه والتابعين أما بعد: لقد ظهرت طوائف قامت بتكفير وتبذيع جماعة المسلمين، واحتجوا ببعض الآيات حسب فهمهم وانحرافهم الفكري، كقوله تعالى: ﴿أَلَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ استدلت بها على كفر من توسل بالصالحين، وشرك من اتخذ واسطة بينه وبين الله.

وهذه الانحرافات لم تأت ابتداءً، وإنما سبقها مقدمات تمثلت في أفكار نمت في عقولهم.

وللانحراف الفكري أسباب منها: الابتداع واتباع الهوى، واتباع المتشابه، والتعصب.

ومبدأ ظهور الاتجاهات المنحرفة في التفسير كان بانتهاء مرحلة التفسير المأثور وحذف أسانيده.

فقمت بالبحث في تفسير هذه الآية، ونهجت فيه الآتي:

المطلب الأول: نقولات من كتب مانعي التوسل في تفسير الآية.

المطلب الثاني: الأحكام المترتبة على تفسيرهم الخاطيء.

المطلب الثالث: بيان وجه الخطأ أو الانحراف في عقيدتهم.

المطلب الرابع: التفسير المأثور حول الآية.

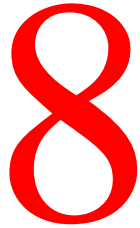
المطلب الخامس: تطبيق القواعد والأصول على التفسير المأثور.

وتوصلت من خلال البحث إلى نتائج ومنها:

أن المانعون للتوسل انحرفوا في تفسيرهم بسبب انحراف في عقيدتهم أدامه للوقوع في كثير من المخالفات ومنها مخالفتهم لإجماع العلماء وخروجهم عن السياق ليخرجوها عن المعنى المراد. وهذا الانحراف لم يرد عن المفسرين، ومخالف لقواعد وأصول التفسير. وإنما أتت التقاسير المنحرفة ليستحلوا دماء المسلمين.

كلمات دلالية:

الانحراف . التوسل . التكفير . زلفى .



Deviation in Quran Interpretation: A Thematic Study of Charge with Infidelity in Az-Zumar Verse

Dr. Salim Abu Bakr Salim El Hadar

Assistant Professor at Department of Quran Studies,
Faculties of Islamic Fundamentals, University of Imam Shafi'i – Mukala,
Hadramout

Alhamdulillah, Praise be to Allah, and may blessings and peace be upon the Messenger of Allah, his descendants, his companions, and the followers : Sects have emerged that have declared the group of Muslims to be infidels and heretics, and they have used some verses as evidence according to their understanding and intellectual deviation. As Allah says (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ) He used it as evidence of the disbelief of the one who seeks help (*tawassul*) from the righteous, and the polytheism of the one who takes an intermediary between himself and Allah.

These deviations did not occur in the first place, but were preceded by introductions represented in ideas that grew in their minds. Intellectual deviation has causes including: Heresy in Islam, following one's desires, following what is similar of Quran, and fanaticism. The principle of the emergence of deviant trends in Tafsir was the end of the stage of traditional Tafsir and the deletion of its *Sanad* (The chain of transmission).

So I researched the interpretation of this verse and came up with the following:

The first requirement: Quotations from books that prohibit seeks help (*tawassul*) in interpreting the verse.

The second requirement: the rulings resulting from their wrong interpretation.

The third requirement: Explaining the error or deviation in their belief.

The fourth requirement: the interpretation of the verse.

The fifth requirement: applying the rules and principles to the interpretation of the hadith.

Through the research, I reached results including:

Those who oppose (*tawassul*) deviated in their interpretation due to a deviation in their belief that led them to commit many violations, including their violation of the consensus of scholars and their departure from the context to take it away from the intended meaning. This deviation was not narrated by the commentators, and is contrary to the rules and principles of interpretation. Rather, the deviated interpretations came to make it permissible to shed the blood of Muslims.

keywords:

Deviation. Tawassul . Altakfir . Zulfa.

المقدمة:

الحمد لله منزل الكتاب قيماً لم يجعل له عوجاً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد .

لقد جاء الهدي القرآني والسنن النبوي والعلم الشرعي بضوابط محددة للتفسير الصحيح القويم، وحذرت من تجاوز هذه الضوابط والانحراف بها تبعاً للرأي والهوى. وقد ظهرت في عصر الإسلام طوائف شغلهم الشاغل هو تكفير وتبديع وتفسيق جماعة المسلمين، بل وصل بهم الأمر إلى تكفير من سبقهم من فضلاء العلماء والصلحاء والمقربين. وقد احتجوا واستدلوا في كثير من الأحيان ببعض الآيات القرآنية حسب فهمهم الخاطئ وانحرافهم الفكري لتلك الآيات الكريمة تأييداً لما زعموه وما ادَّعوه من تكفير جماعات المسلمين، والمراد من الانحراف في تفسير القرآن: هو الخروج عن الحد الشرعي الذي حدّه الله تعالى في كتابه، أو على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأجمع العلماء على حرمة، وذلك مثل الإلحاد، والتكفير بغير علم، والبغي، وإجازة المحرمات، وغيرها، ويلاحظ أن هذا الانحراف ناشئ عن الفكر^(١). وذلك أن الغالب على تلك الانحرافات أنها لم تأتِ ابتداءً، وإنما سبقها مقدمات وتمهيدات، تمثلت في تلك الأفكار التي نمت وترعرعت في عقول المنحرفين^(٢) وإن للانحراف الفكري أسباباً ودواعي تدعو إليه:

منها: الابتداء، وهو أن يأتي المرء بشيء يخالف القرآن أو السنة أو إجماع الأمة.

ومنها: اتباع الهوى، وهو: ميلان النفس إلى ما تستنده من غير داعية الشرع.

(١) الحسيني ، الدكتور عبد الحميد بن عبد الرحمن ، الانحراف الفكري وأثره في الأمن في ضوء القرآن الكريم مكتبة البحوث الإسلامية، (ص ٤).

(٢) المرجع السابق، (ص ٤).

ومنها: اتباع المتشابه، والمراد بالمتشابه الذي يوقع اتباعه في الانحراف الفكري وهو ما كان ملتبساً على الأفهام، مما تشابهت ألفاظه، واحتمل صرف لفظه إلى المعاني المختلفة^(١).

ومنها: التعصب والتحزب، والتعصب: هو أن يجعل العبد ما يصدر عن شخص ما من الرأي والاجتهاد حجّةً عليه وعلى سائر العباد^(٢)، وأما التحزب فهو التجمع لشخص أو طائفة أو نحوهما، والاعتقاد أنهم على حق وغيرهم على باطل^(٣) فهذه الأسباب الأربعة هي التي تدعو إلى الانحراف الفكري، وهناك أسباب أخرى لا يسع ذكرها والإحاطة بها في هذا البحث المختصر^(٤) وأما مبدأ ظهور الاتجاهات المنحرفة في التفسير فكان بانتهاء مرحلة التفسير المأثور إلى حذف أسانيده وذكره مجرداً عنها، حيث مكّن من خلاله تسرب الموضوعات، والاسرائيليات إلى التفسير، فكثير ما وضع أصحاب المذاهب السياسية والعقدية، وغيرهم من أصحاب الميول المختلفة والنزعات المنحرفة أقوالاً في التفسير ونسبوها إلى رسول الله ﷺ، أو على بعض من اشتهر بالتفسير من الصحابة ترويحاً لمذهبهم وتمكيناً لبدعهم وأهوائهم^(٥).

(١) ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، (١٨/١). ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١٢م، القاهرة-مصر، (٢٤٥/١). الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، دار السنابل، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، بيروت-لبنان، (٦٨/٢).

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: عصب، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١٢م، بيروت-لبنان، (٦٠٦/١).

(٣) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادة: حزب، مكتبة الرحبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، القاهرة-مصر، (٥٥/٢).

(٤) ينظر: السحيباني، الانحراف الفكري، (ص ٥-٢٢). مصدر سابق.

(٥) الذهبي، د. محمد حسين، الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم (دوافعها ودفعها)، مكتبة القاهرة، (ص ١٨).

وأما مظاهر الانحراف الفكري في القرآن الكريم فكثيرة لا حصر فيها، ومن أبرز تلك المظاهر بل تعتبر من أعظم أنواع الانحراف الفكري وأخطرها في هذا العصر هو الحكم من بعض الطوائف بتكفير بعض المسلمين بدون علم والمجازفة به احتجاجاً بمفهومهم لبعض الآيات من القرآن الكريم وفقاً لفكرهم المسبق ومن جملة الآيات القرآنية التي استدلت بها طائفة على تكفير جماعات المسلمين ورميهم بالشرك والضلال قوله تعالى: ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى))^(١) حيث استدلت طائفة بها على كفر من توسل بالصالحين، أو استغاث بأولياء الله أحيائهم وأمواتهم، أو الاستمداد من أحدهم، وعلى شرك من اتخذ واسطة بأي كيفية كانت بينه وبين الله تعالى^(٢).

لذلك قمت بالبحث والدارسة والتدقيق في الكشف عن تفسير هذه الآية الكريمة كمثال للانحراف في التفسير، وسأنهج في هذا البحث المختصر الخطة الآتية:

المطلب الأول: نقولات من كتب مانعي التوسل في تفسير الآية.

المطلب الثاني: الأحكام المترتبة على تفسيرهم الخاطئ.

المطلب الثالث: بيان وجه الخطأ أو الانحراف في عقيدتهم.

المطلب الرابع: التفسير المأثور حول الآية.

المطلب الخامس: تطبيق القواعد والأصول على التفسير المأثور.

(١) الزمر (الآية: ٣).

(٢) ابن عبد الوهاب، عبد الرحمن بن حسن بن محمد، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١٢م، صنعاء-اليمن، (ص ٢٩١). الحسني، السيد محمد علوي المالكي، مفاهيم يجب أن تصحح، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ-٢٠١٤م، بيروت-لبنان، (ص ١٠٠).

فإنه أسأل التوفيق والسداد، والعون والإمداد على كتابة وتحرير هذا البحث، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. وما أنا أشرف في المقصود مستعيناً بالله تعالى.

المطلب الأول

نقولات من كتبهم حول هذه الآية

كلام أحمد بن عبدالحليم: "كانوا - أي مشركو العرب - معترفين بأن الله خلق ذلك وحده، كما أخبر الله عنهم في غير موضع، كقوله: ((وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ))^(١) ومثل هذا في القرآن كثير، لكن كانوا يتخذونهم شفعاء يتقربون بهم إلى الله، كما قال تعالى: ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى))^(٢). والمقصود هنا التنبيه على أن الشرك أنواع: فنوع منه يتخذونهم شفعاء يطلبون منهم الشفاعة والدعاء من الموتى والغائبين، ومن تماثلهم. ونوع يتقربون بهم إلى الله. ونوع يحبونهم لا لشيء"^(٣).

كلام محمد ناصر الدين: قال حين بين حقيقة الشرك: " فقد رأينا كثيراً من الحجاج يقعون في الشرك وهم في بيت الله الحرام وفي مسجد النبي -عليه الصلاة والسلام- يتركون دعاء الله والاستغاثة به إلى الاستعانة بالأنبياء أو بالصالحين، ويحلفون بهم ويدعونهم من دون الله - عز وجل - والله يقول: ((إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ

(١) العنكبوت (الآية: ٦١).

(٢) الزمر (الآية: ٣).

(٣) أحمد بن عبدالحليم المعروف بابن تيمية، قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، (ص ١٣٥).

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ))^(١) والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وفي هذه كفاية لمن فتح قلبه للهداية. فليت شعري ماذا يستفيد هؤلاء من حجهم إلى بيت الله الحرام إذا كانوا يصرون على مثل هذا الشرك، ويغيرون اسمه فيسمونه: توسلاً تشفعاً وواسطة، أليس هذه الوساطة هي التي ادعاها المشركون من قبل، يبررون بها شركهم وعبادتهم لغيره تبارك وتعالى: ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى))^(٢). (٣) - كلام ابن عثيمين: قال: "... وأما ما يظنه بعض الناس توسلاً بالصالحين وهو عبادة لهم في الحقيقة فإنه لا يسمى توسلاً، بل هو شرك، مثل أن يقول عند صاحب القبر: يا فلان أغثني من الشدة، يا فلان يسر لي الأمر، وما أشبه ذلك مما يصنعه الجاهلون ويظنون أنه من باب التوسل، وهو حقيقة شرك يشبه قول المشركين الذين قال الله عنهم: ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى))^(٤)·(٥) .

كلام صالح بن فوزان: أنه سئل بحال من يجعل بينه وبين الله الوسائط، فأجاب: "من آمن بأن الله هو الخالق الرازق، ولكنه يجعل بينه وبين الله وسائط في العبادة؛ فقد ابتدع في دين الله ما لم يأذن به الله؛ لأن الله سبحانه أمر بعبادته بدون اتخاذ وسائط. ثم إن كان هذا يتقرب إلى الوسائط بشيء من العبادة كالذبح للأولياء والصالحين والنذر لهم وطلب قضاء الحوائج من الموتى، ويستغيث بهم؛ فهذا شرك أكبر يخرج من الملة. وإن كان يتوسل بالوسائط لحقهم أو جاههم دون أن يصرف لهم شيئاً من العبادة؛ فهذا يعتبر بدعة محرمة ووسيلة من وسائل الشرك. وعلى كل حال؛ لا يجوز اتخاذ الوسائط بين الله وبين العبد في

(١) فاطر (الآية : ١٤).

(٢) الزمر (الآية: ٣).

(٣) الألباني، محمد ناصر الدين، حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر، المكتب الإسلامي، بيروت-لبنان، (ص ٦-٧).

(٤) الزمر (الآية: ٣).

(٥) ابن عثيمين، محمد بن صالح، فتاوى نور على الدرب، (٢/٤)، منشور.

العبادة والدعاء؛ لأن الله أمر بعبادته ودعائه؛ دون اتخاذ وسائط ... والله تعالى يقول: ((وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ))^(١)؛ فسمّاهم باتخاذ الوسائط مشركين، ويقول تعالى: ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى))^(٢)، فسمّاهم باتخاذ الوسائط كفاراً وكاذبين^(٣).

كلام عبد الرحمن آل سعدي: "النوع الثاني - أي: من أنواع التوسل -: شرك أكبر: كدعاء أهل القبور، والاستغاثة بهم، وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر، وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم. ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه، أو متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾... فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم يكفر"^(٤).

كلام محمود شكري الآلوسي: الذي قرر أن من أسباب شرعية الجهاد التوسل بالصالحين: "... أنهم يتعبدون بإشراك الصالحين في عبادة الله تعالى، ويرون ذلك من تعظيم الصالحين الذي يحبه الله، ويريدون -أيضاً- بذلك شفاعتهم؛ لظنهم أنهم يحبون ذلك، كما قال تعالى في أوائل "الزمر" ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله ﷺ، فأنتى بالإخلاص، وأخبرهم أنه دين الله الذي لا يُقْبَلُ من أحد سواه، وأن مَنْ فَعَلَ ما استحسنا حَرَّمَ اللهُ عليه الجنة، ومأواه النار. وهذه

(١) يونس (الآية: ١٨).

(٢) الزمر (الآية: ٣).

(٣) الفوزان، صالح بن فوزان، المنتقى من فتاوى الشيخ صالح الفوزان، جمعه عادل علي الفريدان (٨ / ١)، مكتبة الدائم، المملكة العربية السعودية.

(٤) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، القول السديد شرح كتاب التوحيد، وزارة الشؤون الإسلامية، المملكة العربية السعودية، (ص ٩٦).

المسألة هي الدين كله، ولأجلها تفرق الناس بين مسلم وكافر، وعندها وقعت العداوة، ولأجلها شرع الجهاد، كما قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} (١). (٢).

المطلب الثاني

الأحكام المترتبة على تفسيرهم الخاطئ

نذكر في هذا المطلب الأحكام التي رتبوها على تفسيرهم لآية: ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)) (٣)، الذي نستشفها من خلال كلام هؤلاء المانعين المار ذكره في المبحث السابق، ومنها ما يلي:

١. **تكفير المسلمين والحكم بشركهم واستحلال دمائهم:** يتضح بجلاء أن القائلين بحرمة التوسل اعتبروا التوسل ضرباً من ضروب الشرك، وأنه مخرج عن الملة، وأن فاعله مهدر الدم يجوز قتله. فهؤلاء يستحلون دماء المسلمين من خلال هذه المسألة. وهذا التكفير ناشئ عن ضلال وانحراف في الفكر والمعتقد انعكس على خروجهم عن أصول وقواعد التفسير كما سنبينه. وقد انبنت أحكامهم من تفاسيرهم الخاطئة لآية: ((أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)) (٤).

(١) البقرة (الآية ١٩٣)

(٢) الألويسي، محمود شكري، فصل الخطاب في شرح (مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب)، مكتب البحوث الإسلامية، المملكة العربية السعودية، (ص ٢٠).

(٣) الزمر (الآية: ٣).

(٤) الزمر (الآية ٣).

٢. إطلاقهم في تحريم اتخاذ الوسائط بين الخلق والخالق: ومن جملة الأحكام المترتبة على تفسيرهم لآية (الزمر): أنهم ينفون جميع الوسائط التي جعلها الخلق بينه وبين خالقه، ويعدون ذلك شركاً، وأطلقوا القول في تحريم جعل الوسائط بين الخلق والخالق. كما جاء في (الواسطة) عن ابن تيمية تحت عنوان: الرسل لا يجلبون النفع، ما نصه: "وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجعون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار، لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها"^(١). وكما جاء أيضاً عن كلام صالح بن فوزان المار ذكره: "... وعلى كل حال؛ لا يجوز اتخاذ الوسائط بين الله وبين العبد في العبادة والدعاء؛ لأن الله أمر بعبادته ودعائه؛ دون اتخاذ وسائط ... والله تعالى يقول: ((وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سُبْحَانَهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ))"^(٢)؛ فسمّاهم باتخاذ الوسائط مشركين"^(٣).

٣. استدلالهم بهذه الآية على تحريم محبة الصالحين ورمي المسلمين بالغلو في تلك المحبة: ومن جملة الأحكام المترتبة على تفسيرهم الخاطيء لآية (الزمر): أنهم أوردوا الحكم بتحريم الغلو في الصالحين، واتهموا كل من زار قبراً من قبور الأولياء أو الصالحين بأنه قبوريّ عابد للقبر، وأنه يدعو صاحب القبر ليضره وينفعه.

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الواسطة بين الحق والخلق، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. ت: محمد بن جميل زينو، (ص ٨).

(٢) يونس (الآية ١٨).

(٣) الفوزان، المنتقى من فتاوى الفوزان (٨ / ١)، مصدر سابق.

كما جاء في كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأوهام: "... فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب: منها الغلو في بعض المشائخ ... فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول: يا سيد فلان انصرتني أو أعتيتي وارزقتني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل. فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا شريك له ولا يدعى معه إله، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل: المسيح، والملائكة، والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو يعبدون صورهم يقولون: مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فبعث الله سبحانه رسله تنهي عن أن يدعى من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة"^(١).

المطلب الثالث

بيان وجه الخطأ والانحراف

سأذكر في هذا المطلب بعضاً من وجوه الأخطاء في تفاسيرهم ومخالفتهم لقواعد وأصول التفسير من خلال تفاسيرهم وتأويلاتهم لآية الزمر.

المخالفة الأولى: المخالفة لسبب نزول الآية: إن ملاحظة أسباب النزول هي من القواعد المهمة التي لا بد على المفسر نهجها، فكل آية نزلت على سبب فلا بد من ذكره بعد بيان المناسبة، وقبل الدخول في شرح الآية. ففائدة أسباب النزول معرفة وجه الحكمة الباعثة على

(١) النجدي، سليمان بن سحمان الخثعمي، كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأوهام، أضواء السلف، المملكة العربية السعودية، (ص: ٢٠١).

تشريع الحكم، وتخصيص الحكم به عند من يرى العبرة بخصوص السبب، وأن اللفظ قد يكون عاماً ويقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عداه. وإن ترك النظر في أسباب النزول من أسباب الغلط في فهم مراد الله تعالى، فإن لها دوراً مهماً في بيان معنى الآية والمراد بها، قال الشاطبي: "معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن ... إن معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب، من جهة: نفس الخطاب، أو المخاطب، أو المخاطب، أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بل لا بد، وأن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة وقوع النزاع"^(١) إن آية الزمر: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وغيرها من الآيات التي تبين حرمة اتخاذ الوسائط كقوله تعالى: ((قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا))^(٢) إنما نزلت في المشركين الكفرة الذين لم يعتقدوا ألوهية الرب أصلاً أو أشركوا فيها غيره تعالى، سواء كانوا عبَاد الأصنام، أو الجنّ، أو الملائكة أو غير ذلك كما ذكره العلماء، ولم يرد أثر ولا نقل يدلان على نزول هاتين الآيتين على المسلمين الذين أخلصوا دينهم لله تبارك وتعالى. وذلك كما رواه البخاري في صحيحه: عن عبد الله بن

(١) الشاطبي، الموافقات، (٣/ ٣٤٧)، مصدر سابق.

(٢) الإسراء (الآية: ٥٦)

مسعود قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم (١) ولقد قرر أكثر المفسرين بأن العرب الذين عناهم الله تعالى في آية الزمر هم كفار مشركون، قال ابن عطية: " (أولياء) يريد بذلك معبودين، وهذه مقالة شائعة في العرب، يقول كثير منهم في الجاهلية: الملائكة بنات الله ونحن نعبدهم ليقربونا، وطائفة منهم قالت ذلك في أصنامهم وأوثانها ... و(زُفَى) بمعنى قرى وتوصلة، كأنه قال: لتقربونا إلى الله تقريباً، وكأن هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أقل من أن تتصل هي بالله، فكانت ترى أن تتصل بمخلوقاته" (٢) وقال ابن كثير مبيناً حالهم: "... إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا؛ فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به" (٣) أما تأويل قوله سبحانه وتعالى: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُفَى، على رأي ابن تيمية الذي يقضي بأن مشركي مكة تقربوا بالأصنام والأوثان وما عبدوها، فهو تحكم في النص بغير مسوغ، إذ أن أقوال جميع المفسرين ترد على ابن تيمية وتأويله هذا، فإن منطوق الآية هو تبيكيت وتهكم من المولى سبحانه فيمن ضل طريق الرشد، الذي سنه لعباده ووجهه حسب مراده. فكفار مكة حينما عارضوا الحنيفية السمحة، وانشغلوا بالدنيا وملذاتها، ساء عندهم القياس، وأظلم عندهم الضمير، فأصبحوا لا يفرقون بين الحق والباطل، فرأوا ما كان فرعاً أصلاً، وما كان أصلاً

(١) صحيح البخاري: ك: تفسير القرآن، ب: [قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً]، ح: ٤٣٤٥، (١٤/٣٢٥).

(٢) ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٤م، بيروت-لبنان، (٤/٥١٨).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن، العظيم، (٧/٧٤)، مصدر سابق.

فرعاً فضلوا السبيل^(١) وذكر الشيخ الدجوي^(٢)، والسيد أحمد دحلان^(٣) وغيرهما من العلماء في وصف الخوارج: إن هؤلاء الأقوام لجأوا إلى الآيات التي أنزلت في المشركين وكفار مكة، وحملوها على جمهور المسلمين، وهذا هو حال الخوارج وكان ابن عمر يراهم شرار الخلق، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في المشركين والكفار فجعلوها على المؤمنين^(٤). فهذا حالهم مع المتوسلين^(٥) ومع هذا يغرون العوام بقولهم: إن المشركين يؤمنون بالله وإنه الذي خلق السموات والأرض إلى غير ذلك مما صرحت به الآيات، ومع ذلك هم يعبدون الأصنام ويؤلّهونها من دون الله تعالى، فيشبهون المسلمين الذين يؤمنون بالتوسل والاستغاثة وعبادة القبور، والاستمداد من الموتى، كما هو مذكور في كلامهم السابق ذكره، وقد بيّن الشوكاني أغاليطهم في حملهم هذه الآية الكريمة لتكفير المتوسلين، قائلاً: "أن ما يورده المانعون من التوسل إلى الله بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى: ما نعبدهم إلا ليقربونا

(١) الحميري، عيسى عبد الله محمد، التأمل في حقيقة التوسل، مكتبة صنعاء، (٩٦-٩٨).

(٢) قال الشيخ يوسف الدجوي: "إن المغالين في الإنكار على التوسل عمدوا إلى نصوص واردة في الكفار وطبقوها على المسلم الذي يؤمن بالله رياً، وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، كما فعل الخوارج من قبل فحكموا على كثير من المسلمين بالكفر بناء على نصوص وردت في الكافرين... ويلحق بهم من شايعهم على أفكارهم أو شاركهم في آرائهم في أي زمان. وذلك كاستشهادهم بقول الله تعالى حكاية عن المشركين: ((ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)) في أن من يتوسل إلى الله تعالى بشخص كان مشركاً، مع أن المتوسل لم يعبد من توسل به". ينظر: النور الجلي في جواز التوسل بالنبي والولي، محمد بن نشأت عبد المنعم الخلوئي، (ص ١٨).

(٣) قال أحمد زيني دحلان: "فهؤلاء المنكرون للتوسل والزيارة فارقوا الجماعة والسواد الأعظم وعمدوا إلى آيات كثيرة من آيات القرآن التي نزلت في المشركين فحملوها على المؤمنين الذين تقع منهم الزيارة والتوسل، وتوصلوا بذلك إلى تكفير أكثر الأمة من العلماء والصالحين والعباد والزهاد وعوام الخلق، وقالوا: إنهم مثل أولئك المشركين الذين قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. وقد علمت أن المشركين اعتقدوا ألوهية غير الله تعالى واستحقاقه العبادة، وأما المؤمنون فلم يعتقد أحد منهم ألوهية غير الله واستحقاقه العبادة، فكيف يجعلونهم مثل أولئك المشركين؟ سبحانه هذا بهتان عظيم". ينظر: رسالة في جواز التوسل، السيد أحمد زيني دحلان، (ص ٢٨).

(٤) ذكره البخاري في صحيحه، باب قتل الخوارج والملحد بعد إقامة الحجة عليهم وقول الله تعالى: لوما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}.

(٥) ينظر: السقاف، موسى الكاظم بن جعفر، تدقيق النظر في أصول التوسل والاستغاثة، مكتبة تريم الحديثة، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٨ م، اليمن حضرموت، (ص ٢٠). رسالة في جواز التوسل، دحلان، (ص ٢٨)، مصدر سابق.

إلى الله زلفى، ونحو قوله تعالى: ((فلا تدع مع الله أحداً))^(١) ونحو قوله تعالى: ((لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ))^(٢) ليس بوارد بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه؛ فإن قوله ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى مصرح بأنهم عبدوهم لذلك. والمتوسل بالعالم مثلاً لم يعبد، بل علم أن له مزية عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك^(٣) فتزليل هذه الآية على جماعة المسلمين المتوسلين وتشبيهه حالهم بحال المشركين المعنيين بهذه الآية تشبيهه فاسد؛ حيث إن المسلمين المتوسلين لا يعبدون الوسائط أو المتوسل به ولا يرون منها التأثير بالنفع والضرر، بينما هؤلاء المشركون عبدوا تلك الأصنام أولاً ويعتقدون منها التأثير، فأشركوا الله تعالى في إثبات النفع والضرر لأحد مخلوقاته، فالواجب على كل مسلم اعتقاده هو إفراد الله بالنفع والضرر أو التأثير، وأن الله تعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه، فمن اعتقد في مخلوق مشاركة البارئ في شيء من ذلك فقد أشرك، وأما جعل الوسائط بين الخالق والخلق فلا يُعدُّ هذا الفعل شركاً وكفراً ما لم يعتقد المرء صدور التأثير من الوسائط دون البارئ استقلالاً، وإن اعتقد ذلك فقد أشرك وكفر، أما قول مانعي التوسل في تشبيه حال المتوسلين بحال المشركين الذين جعلوا أصنامهم قرابة وزلفى لهم من الله تعالى الذين خاطبتهم هذه الآية - وفقاً لرأي ابن تيمية - فتشبيهه فاسد من وجوه:

الأول: إن المشركين جعلوا الأصنام آلهة، والمسلمون ما اعتقدوا إلا إلهاً واحداً، فعندهم أن الأنبياء أنبياء والأولياء وأولياء ليس إلا فلم يتخذوهم آلهة مثل المشركين.

(١) الجن (الآية ١٨).

(٢) الرعد (الآية ١٤).

(٣) الشوكاني، محمد علي، الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء-اليمن، (١/ ٣١٦).

الثاني: إن المشركين اعتقدوا أن تلك الآلهة مستحقة للعبادة بخلاف المسلمين؛ فإنهم لم يعتقدوا أن أحد من المتوسّل بهم مستحق لأقل عبادة وليس عندهم المستحق للعبادة إلا الله وحده.

الثالث: إن المشركين عبدوا تلك الآلهة بالفعل كما قال تعالى حكاية عنهم (وما نعبدهم إلا ليقربونا ..)، والمسلمون ما عبدوا الأنبياء والصالحين في توسلهم بهم إلى الله تعالى.

الرابع: إن المشركين قصدوا بعبادة أصنامهم التقرب إلى الله تعالى كما حكى الله عنهم، وأمّا المسلمون فلم يقصدوا بتوسلهم بالأنبياء وغيرهم التقرب إلى الله لما أن التقرب إليه تعالى لا يكون إلا بالعبادة ولذلك قال الله تعالى حكاية عن المشركين: (ما نعبدهم إلا ليقربونا ..) بل إن المسلمين قصدوا التبرك والاستشفاع بهم والتبرك بالشيء غير التقرب به.

الخامس: إن المشركين لما كانوا يعتقدون أن الله تعالى جسم في السماء أرادوا بقولهم (ليقربونا إلى الله ..) التقريب الحقيقي، ويدل عليه تأكيده بقولهم (زلفى) إذ تأكيد الشيء بما هو بمعناه يدل في الأكثر على أن المقصود به هو المعنى الحقيقي دون المجازي. وأمّا المسلمون فحيث لم يعتقدوا أن الله جسم في السماء يبعد منهم أن يطلبوا التقرب الحقيقي إليه بالتوسل، فلا ينطبق عليهم حكم الآية^(١) وهذا موافق لما قاله الشهرستاني عندما يبين حال طائفة من الخوارج قائلاً: "إن الأصناف التي ذكرنا مذاهبهم -الخوارج- يرجعون آخر الأمر إلى عبادة الأصنام، إذ كان لا يستمر لهم طريقة إلا بشخص حاضر ينظرون إليه ويعكفون عليه"^(٢) إن عقيدة المسلمين في الله هي ما ذكرها الغزالي في (شرح أسماء الله الحسنى) ما

(١) الزهاوي، جميل أفندي، الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق، مكتبة الأشراف، (ص ٣٦-٣٧).

(٢) الشهرستاني، محمد عبد الكريم، الملل والنحل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ-٢٠١٤م، بيروت-لبنان، (٣/ ١٠٤).

نصه: "هو -الله- الذي يصدر منه الخير والشر، والنفع والضرر، وكل ذلك منسوب إلى الله تعالى: إما بواسطة الملائكة والإنس والجمادات، أو بغير واسطة"^(١).

المخالفة الثانية: الجهل والغفلة عن أحوال العرب وعاداتها وقت نزول القرآن: إن الغفلة

والجهل في أحوال العرب وعاداتها وقت نزول القرآن من أسباب الغلط في فهم كلام الله تعالى، قال الشاطبي عندما تحدث عما ينبغي لطالب علم القرآن الإحاطة به: "ومن ذلك معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل، وإن لم يكن ثمَّ سبب خاص لا بد لمن أراد الخوض في علم القرآن منه، وإلا وقع في الشبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة"^(٢) وإن مانعي التوسل إنما جهلوا وغفلوا عن أحوال العرب وعاداتهم وقت نزول القرآن، حيث إنهم غفلوا عن حقيقة حال عبدة الأصنام الذين عناهم الله تعالى في هذه الآية، وجهلوا عن معنى قول عبدة الأصنام بهذه المقولة التي حكاها المولى، قال الخطيب الشربيني: "أن عبّاد الأصنام كانوا يقولون: إنّ الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين، فهم يعبدون الله تعالى وخلقهم لعبادته، ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله تعالى فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله تعالى كما قالوا: مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، فقال تعالى: ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ))"^(٣) ولم يذكر الملائكة؛ لأن الأمر فيهم كان مُسَلِّماً من القوم فذكر المنازع فيه"^(٤) ومما يبين أن هؤلاء ما

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، دار المنهاج، الطبعة الرابعة، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٤م، السعودية، (ص ١٤٥).

(٢) الشاطبي، الموافقات، (٣/ ٣٥١)، مصدر سابق.

(٣) الجن (الآية: ٥٦).

(٤) الشربيني، محمد بن أحمد، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٤م، بيروت-لبنان، (١٠٨/٤).

عبدوا الله تعالى سواء كانت خالصةً أو شركةً بغيره تعالى، بل قصرُوا عبادتهم للأصنام قول السيوطي عندما فسر قوله تعالى: ((وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَلَمْ أَقُلْ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ))^(١): "إِنَّ (دُون) هاهنا للقاصر عن الشيء، وهم عبدوا المسيح وأمه كيما يُوصلا إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، كما عبد الكفار الأصنام حيث قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فكأنه قيل: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين متوصلين بنا إلى الله؟ قال: سبحانك، منزهاً عن ذلك"^(٢)، فهؤلاء عبدة الأصنام لم يعبدوا الله تعالى أصلاً، بل أنهم عبدوا خلقاً من مخلوقاته تعالى، ثم بعد أن ترسخ في قلوبهم ومعتقدهم هذا المبدأ العقدي يبررون ما فعلوه من عبادة غير الله أو اتخاذ الوسائط من دون الله بهذه المقولة: ما نعبد هؤلاء الأولياء إلا ليقربونا إلى الله زلفى وقربة. وهذا هو المعنى الحقيقي لهذه المقولة التي غفل عنها مانعو التوسل.

المخالفة الثالثة: المخالفة لقاعدة "تفسير القرآن بالقرآن": أجمع العلماء على أن من أراد تفسير القرآن الكريم يطلبه أولاً من القرآن نفسه، وأن أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن: فما أجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر، وما اختصر في مكان فإنه قد بسط في آخر، فلزم أن ينظر في القرآن نظرة فاحص مدقق، ويجمع الآيات في موضع واحد، ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر، فإن عدل عن هذا وفسر برأيه دخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم: (من قال في كتاب الله تعالى برأيه فأصاب فقد أخطأ)^(٣).

(١) المائدة (الآية ١١٦).

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، بيروت-لبنان، (٣/ ٣٢٠).

(٣) رواه الترمذي في: (سننه): ك: أبواب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، ح: ٢٩٥٢، (٥/ ٥٠)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٤م، بيروت-لبنان.

ويكون تصرفه تصرفاً مذموماً^(١) وهي قاعدة لا غنى عنها لكل دارس وناظر في القرآن الكريم؛ فإن النظرة الجزئية للقرآن الكريم للقرآن تعطي القارئ معاني ناقصة حيناً، ومشوّهة حيناً، وباطلة تماماً أحياناً أخرى. وقد نبه العلماء كثيراً إلى خطورة انتزاع الآيات من سياقها، والاستشهاد بها منفردة عما يفسرها ويبينها من آيات أخر في سورتها، أو في سور غيرها من القرآن الكريم، إن الناظر في نقولات المانعين للتوسل نجدهم يجتزئون النص القرآني لإخراجه من سياقه فلا يذكرون الآية كاملة حيث إن الله تعالى: ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فينتضح من سياق الآية كاملاً أن الله ذمهم على كذبهم وحقيقة كفرهم، أي أنهم لم يصدقوا في اتخاذ الأصنام وسائط ووسيلة وإنما عبدوهم استقلالاً فكفروا بذلك، وهو ما يدل عليه آخر الآية في قوله تعالى: إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، قال ابن حزم: "وما ضلت الخواارج إلا بتعلقهم بآيات ما وتركوا غيرها، وتركوا بيان الذي أمره الله عز وجل أن يبين للناس ما نزل إليهم - وهو رسول الله ﷺ - ولو أنهم جمعوا آي القرآن كلها وكلام النبي ﷺ وجعلوه كله لازماً وحكماً واحداً ومتبعاً كله لاهتدوا"^(٢) وقال الشاطبي متحدثاً عن منشأ البدع والخرافات فيردّه إلى مثل ذلك: "ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض، فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة، بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها،

(١) ينظر: الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، بيروت - لبنان، (٢/ ١٧٧). العك، د. خالد عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، لبنان بيروت، (ص ٧٩).

(٢) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، محمد علي، مكتبة الرسالة الناشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٤م، بيروت-لبنان، (٣/ ٣٠٢).

ومجملها المفسر بمبيّناتها، إلى ما سوى ذلك من مناحيها، لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستبطان إلا بجملتها لا من دليل منها أي دليل كان، وإن ظهر لبادي الرأي نطق ذلك الدليل فإنما هو توهمي لا حقيقي^(١) إن كان مانعو التوسل حرّموا التوسل استدلالاً بهذه الآية فإن هناك آيات متعددة وأحاديث كثيرة تدل على جواز التوسل، وسأورد فيما يأتي عدداً من الآيات من كتاب الله صريحة الدلالة على حقيقة التوسل، مع ذكر أقوال المفسرين في ذلك:

الدليل الأول: قال الله تعالى: ((وَكَاؤُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ))^(٢) يقول الرازي: إن اليهود من قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كانوا يستفتحون، أي: يسألون الفتح والنصرة، وكانوا يقولون: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي الأمي^(٣) ، ويقول ابن الجوزي: "يستفتحون: يستنصرون، وكانت اليهود إذا قاتلت المشركين استنصروا باسم نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم"^(٤) .

الدليل الثاني: قال تعالى: " وابتغوا إليه الوسيلة"^(٥) يقول الزمخشري: "الوسيلة: كل ما يتوسل به، أي: يتقرب من قرابة أو صنيعه أو غير ذلك"^(٦) ، ويقول أبو بكر عبد الرحمن مخيون: "والحاصل أن الوسيلة: السبب والقرية، أي: كل ما يتقرب به. وقال قوم في الآية: الأمر بالتقوى للعمل، والوسيلة: الذوات الشريفة، منعاً من التكرار؛ لأنه لو صرفنا الوسيلة للعمل

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الاعتصام، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١١م، بيروت-لبنان، (١/ ٢٤٤).

(٢) البقرة (الآية: ٨٩).

(٣) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، تفسير مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثامنة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٦م، بيروت-لبنان، (ص ٥١٢).

(٤) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي القرشي، زاد المسير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ-٢٠١٤م، بيروت-لبنان، (١/ ١١٤).

(٥) المائدة (الآية: ٣٥).

(٦) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة صنعاء، (١/ ٦٦٢).

كان تأكيداً لما سبق من الأمر بالتقوى، وإذا صرفناها للذوات الفاضلة كان تأسيساً، والتأسيس خير من التوكيد.^(١)

الدليل الثالث: ((وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا))^(٢) قال ابن عطاء الله مفسراً لهذه الآية: "من لم يجعل قصده إلينا على سبيلك، وسنتك، وهداك، ضل الطريق وأخطأ الرشد"^(٣) وجاء في تفسير الرازي ما نصه: "إنما قال: (واستغفر لهم الرسول) ولم يقل: واستغفرت لهم؛ إجلالاً للرسول - عليه الصلاة والسلام - وأنهم إذا جاءوه فقد جاءوا من خصه الله برسالته، وأكرمه بوحيه، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته"^(٤) فكلام الرازي - هذا - ردٌّ لمن أنكر ونفى اعتبار الوسائط بين الخلق والخالق، حيث أنهم طلبوا من رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ابتداءً قبل أن يستغفروا الله تعالى، ولو كانت الوسائط ممنوعةً أو أنها مؤدية للشرك لمنعهم النبي عليه وسلم من طلب الاستغفار منه صلى الله عليه وسلم، ولأمرهم بطلب الاستغفار من الله مباشرةً. وهذه الآية وإن كانت نزلت بسبب المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت فهي عامة تشمل كل عاصٍ ومقصر، لأن ظلم النفس المذكور فيها يشمل كل معصية"^(٥).

الدليل الرابع: ((أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ))^(٦) قال البغوي: "يعني: الذين يدعونهم المشركون آلهة يعبدونهم. قال ابن

(١) مخيون، جليل أبو بكر، سهام الموحدين في حناجر المارقين، مكتبة الشؤون الإسلامية، (ص ٢٢).

(٢) النساء (الآية: ٦٤).

(٣) السلمي، محمد بن الحسين، حقائق التفسير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١١م، بيروت - لبنان، (١/ ١٥٣).

(٤) الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، (١٠/ ١٢٧)، مصدر سابق.

(٥) الحميري، التأمل في حقيقة التوسل، (ص: ١٢٠)، مصدر سابق.

(٦) الإسراء (الآية: ٥٧).

عباس ومجاهد: وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم "يبتغون" أي يطلبون إلى ربهم "الوسيلة" أي القرية. وقيل: الوسيلة الدرجة العليا أي: يتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا. وقيل: الوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله تعالى. وقوله: {أيهم أقرب} معناه: ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به، وقال الزجاج: أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح" (١) إذن تقرر لنا بمجموع هذه الآيات الأربعة جواز التوسل، وأن استدلال مانعي التوسل بآية الزمر على حرمة التوسل، وتفسيرهم بذلك تفسير باطل مخالف لقاعدة مهمة من قواعد أصول التفسير، وهي تفسير القرآن بالقرآن، أي: أن المولى تعالى قد بيّن ووضّح في آيات متعددة تصريحاً أو تلميحاً على جواز التوسل. وورد كذلك في السنة من إتيان الصحابة لرسول الله ﷺ ؛ لطلب الدعاء لهم، كحديث الأعمى (٢)، وغيره من الأحاديث، قال عبد الله الصديق الغماري: "علم من هذه النصوص والآثار أن العلماء على اختلاف مذاهبهم متفقون على جواز التوسل، وأنهم لا يرون به بأساً؛ لأنهم حملوا عليه آيات من القرآن الكريم وفسروها به كما ترى، ولو كان حراماً أو إشراكاً كما تزعم الوهابية لما استجازوا أن يتجرؤوا على القول في تفسير القرآن بما هو شرك وضلال، ويؤيد هذا قول النبي السبكي في (شفاء السقام): أن إنكار ابن تيمية للاستغاثة والتوسل قول لم يقله عالم قبله" (٣) .

(١) البيهقي، حسين بن مسعود ، تفسير معالم التنزيل ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١١م، بيروت-لبنان، (٥ / ١٠١).

(٢) رواه الترمذي في سننه: ك: أبواب الأدعية، ب: أحاديث شتى من باب الأدعية، ج: ٣٥٧٨، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١١م، بيروت-لبنان. رواه ابن ماجه في سننه: ك: أبواب الوتر ، ب: ما جاء في صلاة الحاجة، ح: ١٣٨٥، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١١م، بيروت-لبنان.

(٣) شفاء السقام في زيارة خير الأنام، الإمام تقي الدين علي بن عبد الرحمن السبكي، (ص ١١٩)، الطبعة الهندية.

المخالفة الرابعة: المخالفة لقول جمهور العلماء: ومن القواعد الثابتة لكل من تصدى لتفسير القرآن عدم مخالفة التفسير لقول جمهور العلماء أو الإجماع؛ إذ الإجماع أحد مصادر التشريع الإسلامي كما علم؛ كي يتعرف المفسر على الإجماع فلا يكون خارقاً له.^(١) لذلك قال الإمام الشافعي في مختصر البويطي: "لا يحل تفسير المتشابه إلا بسنة عن رسول الله، أو خبر عن أحد من أصحابه، أو إجماع العلماء"^(٢) فقد خالف تفسير هؤلاء الطائفة واتجاهاتهم الفكرية لهذه الآية - أعني: آية الزمر - قول جمهور العلماء، حيث استدلل هؤلاء الطائفة بها على تحريم التوسل وتكفير فاعله وقد أجمع العلماء على جوازه ولم يروا بأساً في ذلك؛ فهذا التصرف قد خالفوا قاعدة ثابتة في تفسير القرآن فيكون تفسيرهم داخلاً ضمن التفسير المنحرف أو الرأي المذموم. وقد جوّز التوسل أصحاب المذاهب الأربعة، ولم يرد عن واحد من السلف خلاف قولهم، بل إن السبكي - رحمه الله - نقل الإجماع على ذلك^(٣) **فمن أقوال الحنفية:** قول ابن الهمام: "ويسأل الله تعالى حاجته متوسلاً إلى الله بحضرة نبيه عليه الصلاة والسلام ... ثم يسأل النبي ﷺ الشفاعة فيقول: يا رسول الله أسألك الشفاعة، يا رسول الله أسألك الشفاعة، وأتوسل بك إلى الله في أن أموت مسلماً على ملتك وسنتك."^(٤) **ومن أقوال المالكية:** قول القاضي عياض: "أن المنصور أبا جعفر قال للإمام مالك: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه،

(١) ينظر: العك، أصول التفسير وقواعده، (ص ١٨٨).

(٢) ينظر: البويطي، يوسف بن يحيى، مختصر البويطي، دار المنهاج، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٥م، السعودية، (ص: ١٠٤٣).

(٣) قال المناوي: قال السبكي: ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبي إلى ربه ولم ينكر ذلك أحد من السلف ولا من الخلف، حتى جاء ابن تيمية فأنكر ذلك وعدل عن الصراط المستقيم، وابتدع ما لم يقله عالم قبله وصار بين أهل الإسلام مثله انتهى. "فيض القدير، شرف الدين المناوي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م، بيروت لبنان، (٢/ ١٧٠).

(٤) ابن الهمام، محمد بن عبد الواحد السيواسي، شرح فتح القدير، دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت لبنان، (٦/ ٢٤٩).

وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عيه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به! فيشفعك الله، قال الله تعالى: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ...) الآية.، وقول الخرخشي: "وأما التوسل ببعض مخلوقاته فجائز." (١) **ومن أقوال الشافعية:** قول النووي في المجموع، وشيخ الإسلام الأنصاري في فتح الوهاب، والخطيب في مغني المحتاج: "ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه النبي ﷺ ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه." (٢) **ومن أقوال الحنابلة:** قول ابن قدامة: "ثم تأتي القبر فتولي ظهرك القبلة، وتستقبل وسطه، وتقول: اللهم إنك قلت وقولك الحق: لو لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً}. وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبي، مستشفعاً بك إلى ربي." (٣). وقول ابن مفلح: "ويجوز التوسل بصالح، وقيل: يستحب، قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروذي: إنه يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه، وجزم به في المستوعب وغيره. وجعلها شيخنا كمسألة اليمين به" (٤).

المخالفة الخامسة: المخالفة للسياق الذي سبقت له الآية: إن معرفة السياق أصل في بيان معناها؛ لأنه لا يتعارض مع أي قرينة من القرائن، ولا يجوز الخروج بالآية عما دل عليه لفظها وسياقها، وكل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد على قائله،

(١) القاضي عياض، بن موسى بن عياض الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر، بيروت لبنان، (٢/ ٤١). ينظر: الخرخشي، محمد بن عبد الله، شرح مختصر خليل، (٩/ ١٤٠)، دار الفكر، بيروت لبنان. ومن كتب الشافعية: المجموع، النووي، (٨/ ٢٧٤). فتح الوهاب، شيخ الإسلام أبو زكريا الأنصاري، (٢٥٧/ ٩). مغني المحتاج، الشربيني، (١/ ٥١٢). ومن كتب الحنابلة: المغني، ابن قدامة (٧/ ٤٢١). الفروع في الفقه الحنبلي، ابن مفلح، (٣/ ١٥٢).

(٢) الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب، مغني المحتاج، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، (١/ ٥١٢). ينظر: الإمام النووي، يحيى بن شرف، المجموع شرح المهذب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، (٨/ ٢٧٤).

(٣) ابن قدامة، محمد بن عبد الله المقدسي المغني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، بيروت لبنان، (٧/ ٤٢١).

(٤) بن مفلح، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، الفروع في الفقه الحنبلي، دار الرسالة، بيروت لبنان، (٣/ ١٥٢).

لذلك قال الزركشي: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز."^(١) وقد تقرر عند العلماء أن القول الذي يتوافق مع سياق الآية هو القول الصحيح المعتمد^(٢) وهذا أبو المفسرين الإمام الطبري عندما فسر الآية: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، بعد أن نقل الروايات المروية عن السلف في تفسير الآية قال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصحة وأشبهها بما دلّ عليه التنزيل: القول الذي قاله الحسن البصري^(٣)، الذي رواه عنه أبو بكر الهذلي. وإنما قلنا ذلك أولها بالصواب؛ لأن الخطاب من مبتدأ هذه السورة إلى هذه الآية، والخبر خرج من الله عزّ وجلّ خطاباً للمشركين وخبراً عنهم، وتوبيخاً لهم، واحتجاجاً من الله تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن هذه الآية أيضاً سبيلها سبيل ما قبلها وما بعدها في أنها احتجاج عليهم، وتوبيخ لهم، أو خبر عنهم"^(٤) إن الناظر في نقولات المانعين للتوسل نجدهم يجتزئون النص القرآني لإخراجه من سياقه فلا يذكرون الآية كاملة حيث أن الله تعالى قال: ((أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ))^(٥)، فيتضح من سياق الآية كاملاً أن الله نهم على كذبهم وحقيقة كفرهم، أي أنهم لم يصدقوا في اتخاذ الأصنام وسائط ووسيلة

(١) الشاطبي، البرهان في علوم القرآن، (٣١٧/١)، مصدر سابق.

(٢) ينظر: الحربي، د. حسين علي، قواعد الترجيح عند المفسرين (دراسة نظرية تطبيقية)، دار القاسم، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨، السعودية، (٢٩٩/٢).

(٣) قول الحسن البصري في الآية: أن الآية تخاطب المشركين الذي كفروا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم وجحدوا بها، فمعنى: (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) أي: في الدنيا، أخرج كما أخرج الأتبياء قبلي أو أقتل كما قُتلت الأتبياء من قبلي؟ ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم، أمّي المكذبة، أم أمّي المصدقة، أم أمّي المرمية بالحجارة من السماء قذفاً، أم مخسوف بها خسفاً.

(٤) الطبري، جامع البيان، (٢٢/١٠٠). ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، (٦/٦٠٨)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة مصر.

(٥) الزمر (الآية:٣).

وإنما عبودهم استقلالاً فكفروا بذلك، وهو ما يدل عليه آخر الآية في قوله تعالى: إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، فالقول الصحيح في تفسير آية (الزمر) أنها نزلت ذمّاً وتوبيخاً للمشركين الذين عبدوا الأصنام، وتفسير الآية بأنها نزلت ذمّاً وتوبيخاً للمتوسلين الذين أخلصوا عبادتهم لله تفسير باطل مخالف لقواعد وأصول التفسير.

المخالفة السادسة: الجهل في فهم قاعدة: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب": إذا قال مانعو التوسل: بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والمعنى لذلك هنا أن تلك الآيات التي أنزلت في مشركي العرب لا تختص بهم؛ لكونها وردت بسببهم، بل تعم كل من عبد شيئاً من دون الله واتخذها إلهاً مع الله سواء كان المشرك من العرب أم من العجم، وسواء كان في عهد التنزيل أم بعده إلى قيام الساعة؛ لأن لفظ المشركين في الآيات يشملهم بحسب الوضع الشرعي واللغوي، وكونه وارداً في طائفة منهم كمشركي العرب لا يكون مانعاً من حمله على باقيهم ولا معارضاً له، فيجب الأخذ بمدلول اللفظ والتمسك بعمومه حتى يقوم الدليل على التخصيص، ولكن الفهم الصحيح لمعنى حمله على عمومه: أن يحمل اللفظ على ما سيتناوله لغةً وشرعاً كما قدمنا، وليس معناه أن يحمل اللفظ على ما لم يتناوله ولا هو مدلوله: كما لو حمل لفظ مسلم في الحديث: (سبحان الله إن المسلم لا ينجس) فإنه محمول على العموم أي: أن الحديث لا يختص بأبي هريرة رضي الله عنه الذي كان سبب وروده، بل يعم ذلك كل مسلم من ذلك الوقت إلى قيام الساعة، ولا يعني بذلك أنه محمول على المسلم والكافر معاً فإنه قلب للأوضاع اللغوية والشرعية، وحملٌ للفظ على ما لا يحتمله، وهو مع ذلك تلاعب بنصوص الشرع^(١).

(١) كاظم السقاف، تدقيق النظر، (ص ٣٥)، مصدر سابق.

إذا علمت هذا تعلم بطلان قولهم: إن آية الزمر وإن أنزلت في عباد الأصنام إلا أنها تشمل كل من عمل عملهم؛ لأن لفظ المشركين في الآيات التي نمت عباد الأصنام لا يتناول المسلمين، ولا يمكن أن تتناولهم لا بوضع اللغة ولا بوضع الشرع ولا بعرفه، فتطبيقه عليهم كتطبيق لفظ مسلم على الكفار، إذ أن في كل منهما خروج عن مدلول اللفظ وتحريفاً في التأويل.

أسباب الخطأ والانحراف في التفسير: مما سبق من ذكر بعض المخالفات الموجودة في تفسير مانعي التوسل، يمكن أن نقف على الأسباب التي تؤدي إلى الخطأ والانحراف في تفاسيرهم لآيات القرآن:

١. سوء الفهم للنص القرآني: يظهر ذلك في عدم معرفتهم لمعنى (العبادة) في الآية، والفرق بينها وبين التوسل وغير ذلك.
٢. الجهل بأسباب النزول: يظهر ذلك في تنزيلهم آية الزمر التي نزلت في المشركين الذين عبدوا الأصنام على المسلمين الذين أخلصوا عبادتهم لله تعالى.
٣. عدم الالتزام بالضوابط والأصول الصحيحة في تفسير كلام الله تعالى: وذلك بعدم معرفة مناهج المفسرين، ومعرفة قواعد وأصول التفسير وعلوم القرآن، وقد مر البيان في ذكر بعض مخالفاتهم لقواعد أو أصول ثابتة في علم التفسير.
٤. اتباع الأهواء وتعمد إضلال الآخرين: وهو من أخطر العوامل التي تؤصل في النفوس تحريف النصوص؛ لذلك بنت هذه الطائفة تفاسيرهم لآيات القرآن على فكرهم المُسَبِّق^(١).

(١) ينظر: الفيومي، عاطف بن عبد المعز، تاريخ من الانحراف في تفسير القرآن طبعة طريق المصلحة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١٢م، (ص٢٨). خالد العك، أصول التفسير وقواعده، (ص٢٣٠)، مصدر سابق.

المطلب الرابع

التفسير المأثور حول الآية:

عن مجاهد في قوله تعالى: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) قال: قريش تقوله للأوثان، ومن قبلهم يقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزير^(١).
وعن قتادة قوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) قالوا: ما نعبد هؤلاء (إلا ليقربونا) إلا ليشفعوا لنا عند الله^(٢). وذلك أنهم إذا قيل لهم: من ربكم، ومن خلقكم، ومن خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأوثان؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، أي: قربي^(٣) وعن ابن زيد في قوله: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) قال: قالوا: هم شفاعونا عند الله، والذين يقربونا إلى الله يوم القيامة للأوثان^(٤) وعن الكلبي: جواب هذا الكلام قوله في سورة الأحقاف: ((قَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ))^(٥).

(١) جامع البيان، للطبري، (٢٥١/٢١)، مصدر سابق. الدر المنثور، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (٧/٢١١)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

(٢) جامع البيان، للطبري، (٢٥١/٢١)، مصدر سابق.

(٣) جامع البيان، للطبري، (٢٥١/٢١)، مصدر سابق، وتفسير معالم التنزيل، للبيهقي، (٧/١٠٨)، مصدر سابق.

(٤) الدر المنثور، السيوطي، (٧/٢١١)، مصدر سابق.

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، (٧٩/١٢)، دار السنابل، تركيا.

المطلب الخامس

تطبيق القواعد والأصول على التفسير المأثور

لو لاحظنا الروايات والنصوص المتقدمة من كلام المفسرين وجدنا أن هؤلاء المفسرين قد طبقوا قواعد وأصول التفسير. ونوضح ذلك فيما يأتي:

١. مراعاتهم لذكر سبب نزول آية الزمر، حيث إن أكثر المفسرين لما فسروا هذه الآية ذكروا في مقدمة تفاسيرهم سبب نزول هذه الآية، وأنها نزلت في المشركين الذين عبدوا الأصنام، وقد مر نقل أقوالهم في ذلك. ولم يجد الباحث مفسراً قال: أن الآية نزلت في المسلمين المتوسلين.
٢. مراعاتهم لمعرفة عادات وأحوال العرب حالة التنزيل، كما وجدنا في تفاسيرهم من بيان لفظ: (الأولياء)، والمراد الحقيقي من مقولتهم: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" حيث أنها تبرير لما ارتكبه هؤلاء من عبادة الأصنام دون الله تعالى.
٣. مراعاتهم لقاعدة: تفسير القرآن بالقرآن. كما وجدنا في تفاسيرهم من ذكر الآيات الأخرى التي نزلت أيضاً في بيان هؤلاء العرب الذين عبدوا الأصنام، كآية: فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا^(١) والآية: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ^(٢).
٤. موافقتهم لقول سلف الأمة أمثال قتادة ومجاهد وغيرهما من أن الآية نزلت في المشركين، ولم يُخرجوها عن ذلك.

(١) الجن (الآية ١٨).

(٢) الرعد (الآية ١٤).

نتائج البحث:

يتلخص مما تقدم ذكره نتائج هامة ومنها:

١. المانعون للتوسل انصرفوا في تفسيرهم لقوله تعالى "أَ كَا كَلْ كَم كَى كَى لَمْ لَمْ لَى" وسبب ذلك انحراف في عقيدتهم أداهم للوقوع في كثير من المخالفات ومن أخطرها مخالفتهم لإجماع العلماء وخروجهم عن سياق الآية ليخرجوها عن المعنى المراد لها.
 ٢. إن هذا الانحراف لم يرد مطلقاً في كلام المفسرين ومخالفتهم للتفسير بالمأثور، ومخالفاً لقواعد وأصول التفسير.
 ٣. إن هذا الانحراف (وهو حمل الآيات التي نزلت في الكفار على المسلمين) من صفات فرقة الخوارج.
 ٤. إن المفسرين سواء كانوا متقدميهم أو متأخريهم أمثال الإمام الطبري، والإمام البغوي، والإمام الخازن، والإمام السيوطي وغيرهم من المفسرين المعتبرين فسروا هذه الآية وذكروا سبب نزولها، وأنها وردت في عبدة الأصنام الكفرة، ولم ير واحد منهم تنزيلها على المسلمين الموحدين، ولا تشبيه حالهم بهؤلاء الكفرة المشركين.
 ٥. إنما أنت التفسير الباطلة المنحرفة بتحريم التوسل ليستحلوا بهذا التصرف دماء المسلمين، وينتهكوا أعراضهم وحرماتهم كما نجد في كلام أحدهم: أنه جعل مسألة التوسل من المسائل التي من أجلها شرع الجهاد.
- وقد انتهى هذا البحث المختصر، عسى الله أن يجعله نافعا للأمة، وخالصاً لوجه الله الكريم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين ...

فهرس المراجع:

القرآن الكريم:

كتب التفسير وعلومه:

١. الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم (دوافعها ودفعها)، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة القاهرة.
٢. الإحكام في أصول الأحكام، محمد علي بن أحمد بن حزم، مكتبة الرسالة الناشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٤م، بيروت-لبنان.
٣. أصول التفسير وقواعده، للدكتور خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، لبنان بيروت.
٤. الاعتصام، إبراهيم بن موسى الشاطبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١١م، بيروت-لبنان.
٥. الانحراف الفكري وأثره في الأمن في ضوء القرآن الكريم، الدكتور عبد الحميد بن عبد الرحمن السحبياني، (ص ٤)، مكتبة البحوث الإسلامية.
٦. البرهان في علوم القرآن، للزركشي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، بيروت - لبنان.
٧. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع.
٨. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، (١/٢٤٥)، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م، القاهرة-مصر.
٩. تفسير زاد المسير، لابن الجوزي الحنبلي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
١٠. تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٤م، بيروت-لبنان.
١١. تفسير مفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، دار الفكر، بدون رقم الطبعة وسنتها

١٢. تفسير معالم التنزيل، الإمام حسين بن مسعود البغوي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١١م، بيروت-لبنان.
١٣. جامع البيان عن تأويل القرآن المعروف بتفسير الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بدون سنة الطبعة.
١٤. حقائق التفسير، الإمام محمد بن الحسين السلمي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١١م، بيروت-لبنان.
١٥. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
١٦. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، لمحمد الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
١٧. فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان القنوجي، دار السنابل، بدون رقم الطبعة وسنتها
١٨. قواعد الترجيح عند المفسرين (دراسة نظرية تطبيقية)، د. حسين علي الحربي، دار القاسم، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨، السعودية.
١٩. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، مكتبة الصنعاء.
٢٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة مصر.
٢١. نواهد الأبحار وشوارد الأفكار حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، للجلال عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- كتب الحديث وشروحه وعلومه:**
١. الجامع الصحيح، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري.
٢. سنن الترمذي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ-٢٠١٤م، بيروت-لبنان.
٣. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م.

كتب الفقه:

١. شرح فتح القدير، محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام، دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت لبنان.
٢. شرح مختصر خليل، محمد بن عبد الله الخرشبي، دار الفكر، بيروت لبنان.
١. الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء-اليمن.
٢. الفروع في الفقه الحنبلي، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، دار الرسالة، بيروت لبنان.
٣. المجموع شرح المهذب، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بدون سنتها.
٤. مختصر البويطي، يوسف بن يحيى البويطي، دار المنهاج، ١٤٣٤هـ-٢٠١٥م، السعودية.
٥. مغني المحتاج، لشمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
٦. المغني، لأبي محمد عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

كتب أخرى:

١. الاعتصام، إبراهيم بن موسى الشاطبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١١م، بيروت-لبنان.
٢. تاريخ من الانحراف في تفسير القرآن، عاطف بن عبد المعز الفيومي، طريق المصلحة، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١٢م
٣. التأمل في حقيقة التوسل، د. عيسى بن عبد الله بن محمد الحميري، مكتبة صنعاء.
٤. تدقيق النظر في أصول التوسل والاستغاثة، للسيد موسى الكاظم، مكتبة تريم الحديثة، ١٤٣٨ هـ- ٢٠١٨ م
٥. حجة النبي ﷺ، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت-لبنان، دون رقم الطبعة وسنتها.
٦. سهام الموحدين في حناجر المارقين، جليل أبو بكر مخيون، مكتبة الشؤون الإسلامية.

٧. شفاء السقام في زيارة خير الأنام، الإمام تقي الدين علي بن عبد الرحمن السبكي، الطبعة الهندية.
٨. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الفكر، بيروت لبنان.
٩. فتاوى نور على الدرب، لابن العثيمين، منشور في النت.
١٠. فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م، صنعاء-اليمن.
١١. الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق، لجميل أفندي الزهاوي، مكتبة الأشراف، دون رقم الطبعة وسنتها.
١٢. فصل الخطاب في شرح (مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب)، لمحمود شكري الألوسي، مكتب البحوث الإسلامية، المملكة العربية السعودية.
١٣. قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق، لابن تيمية، مكتبة الوداعي، دون رقم الطبعة وسنتها.
١٤. القول السديد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، ط: وزارة الشؤون الإسلامية-المملكة العربية السعودية، دون رقم الطبعة وسنتها.
١٥. كشف غياهب الظلام عن أوهام جلاء الأوهام، لسليمان بن سحمان الخثمي النجدي، أضواء السلف.
١٦. لسان العرب، لابن منظور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م، بيروت-لبنان.
١٧. معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، مكتبة الرحبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، القاهرة-مصر.
١٨. مفاهيم يجب أن تصحح، السيد محمد علوي المالكي الحسني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٤م، بيروت-لبنان.
١٩. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المنهاج، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٠. الملل والنحل، محمد عبد الكريم الشهرستاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ-٢٠١٤م، بيروت-لبنان.
٢١. المنقلى من فتاوى الشيخ صالح الفوزان، صالح الفوزان، جمعه عادل علي الفريدان مكتبة الدائم، المملكة العربية السعودية.
٢٢. الموافقات من أصول الأحكام، للشاطبي، دار السنابل، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٢٣. الوسطة بين الحق والخلق، لابن تيمية، دار الحديث، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م. ت: محمد بن جميل زينو.